المساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية

د. إبراهيم بن محمد الحمد المزينى(*)

مقدمة :

حرص الواقفون على المدارس ودور التعليم المختلفة فى كثير من العواصم الإسلامية على توفير كافة احتياجات الطلبة الدارسين فيها ، ومدرسيهم ، وبالأخص المسكن الملائم لهم كى يجد الطلبة والأساتذة الغرباء ، والطلبة الفقراء من أهل البلد المأوى المناسب لطلب العلم . فكان من مستلزمات ومكملات كثير من المدارس إنشاء بيوت ملحقة بها تخصص لسكنى الطلبة والمدرسين ، ويعد هذا الأمر بحق إحدى مفاخر الحضارة الإسلامية ، ومنجزاتها .

ويقصد بهذه المساكن ، أماكن مبيت الطلبة والمعلمين ، ومن يقوم بخدمتهم إضافة إلى ما يتوفر لهم فيها من طعام واغتسال وطبابة ، ومخصصات نقدية تسمى المعلوم . وقد هدف هذا كله إلى تشجيع الطلبة على التفرغ لطلب العلم بحيث لا تشغلهم متطلبات المعيشة ، وأعباؤها الكثيرة عن ذلك .

وقد انتشرت هذه الظاهرة فى كثير من مدارس مصر والشام والعراق ، وأصبحت مرفقًا من مرافقها المهمة والضرورية .

ومما تميزت به المدارس الإسلامية عن غيرها من المنشآت أنه روعى فى تصميمها المعمارى التخطيط لهذه المساكن أو البيوت .

وكان نظام المساكن فى المدارس الإسلامية من مفاخر التعليم الإسلامى حيث ساعد هذا النظام على توفير الجو المناسب للطلبة والمدرسين كى ينقطعوا لطلب العلم بعد أن تكفل مؤسسو المدارس فى الأوقاف التى وقفوها عليها بتوفير ما يلزم المقيمين بها من المأكل والملبس والمسكن بجانب ما يتقاضونه من معاليم

(*) قسم التاريخ والحضارة – كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

شهرية . كما أنها يسرت التعليم للفقراء والغرباء . وقد رصد ابن جبير مشاهداته لهذه المرافق فى دمشق أثناء زيارته لها فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وتحدث عن التسهيلات المغرية لطلاب العلم فى هذه البلاد جميعًا ، ومنها هذه المرافق ، فقال : " ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب ... وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب فى طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمها "(١) .

واختلفت نوعية هذه المساكن فى مستواها من مدرسة لأخرى تبعًا لمكانة الوقف الموقوف عليها وما جاء فى حجة ذلك الوقف من شروط وقواعد تحدد أوجه الصرف ومقداره ولذا فإن بعض بيوت الطلاب والمدرسين فاق البعض الآخر فى مستواه من الجودة والاتقان فنالت إعجاب من شاهدها ، ومر بها .

نشأتها :

لم يكن للمساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية ذكر قبل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) إذ إن أقدم ما وصلنا عن هذه المساكن ما قام به الإمام أبوحاتم بن حيان السجستانى البستى (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م) الذى اتخذ مسكنًا للغرباء الذين يدرسون عليه من أهل الحديث والمتفقهة ، وجعل لهم الجرايات الواسعة التى ينفقها عليهم من ماله الخاص(٢) .

وبعد ذلك تأتى إشارة المقريزى إلى أنه فى سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨م) أنشأ الخليفة العزيز بالله الفاطمى دارًا للفقهاء بالجامع الأزهر بإشارة من وزيره يعقوب ابن كلس وأنها خصصت لإقامة خمسة وثلاثين من فقهاء الشيعة ، وأجرى عليهم الأرزاق التى تكفى لكل واحد منهم(٣) .

كذلك الحال بالنسبة للمدرسة العوفية التى أنشأها الخليفة الفاطمى الحافظ سنة ٥٣٢هـ(١١٣٧م) إذ أنها اشتملت على بيوت للطلبة(٤) . ثم أعقب ذلك

النشاط الذى قام به الوزيـر السـلجوقى نظـام الملـك الطوسـى حينمـا أنشـأ النظاميـات العشـر فـى كل مـن العراق ، وبلاد فارس ، فى أواسط القرن الخامس الهجـرى (الحادى عشر الميلادى) إذ إنه قام بإلحاق مثل هذه المساكن ببعض تلك المدارس(٥) .

واشتهرت المدرسة المستنصرية(٦) ببغداد بما ألحق بها من بيوت لأهل العلـم، وفيها وصلت المساكن إلى أرقى ما عرف من هذا النوع فـى العـراق خـلال القـرن السابع الهجـرى (الثـالث عشـر الميـلادى) حيـث اشـتملت تلـك المسـاكن علـى مستشفى خـاص لعلاج الطلاب ، ومطبخ عام يقدم لهـم الطعـام بالمجـان وحمـام ، و لم يكن هذا معروفًا فيما سـبق مـن المـدارس(٧) . وهكـذا انتشـر نظـام المسـاكن الداخلية مع انتشار المدارس الإسلامية وتطور بتطورها .

وفى هذا المقام أجدنى أخالف من ذكر أن المساكن الداخلية أول ما وجدت نشأت فـى رحـاب الجـامع الأزهـر ثـم انتقلـت منـه إلى بقيـة المـدارس فـى العـالم الإسلامى مثلما ذكر الأستاذ / أحمد شلبى(٨) .

تطور المساكن وانتشارها :

لم يكن وجود المساكن الداخلية لإيواء أهل العلم وبخاصةالغرباء قاصرًا علـى المدارس ، فقد وجد مثل هذه المساكن فى كثير من الجوامع والمساجد النشـطة فـى حركة التعليم فى الديار الإسـلامية . وقـد تحـدث ابـن جبـير عـن كثـير مـن هـذه المساكن فى الديار المصرية أثناء مروره بها فى العهد الأيوبـى ، فقـال وهـو يصـف مسجد ابن طولون : " وهومن الجوامـع العتيقـة الأنيقـة الصنعـة الواسـعة البنيـان ، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقـون فيـه ، وأجـرى عليهـم الأرزاق فى كل شهر"(٩) ، ويضيف قـائلاً عـن مـأثر صـلاح الديـن الأيوبـى فـى مصر: " وما منها جامع من الجوامـع ، ولا مسـجد مـن المسـاجد ولا روضـة مـن الروضات المبنية على القبور ولا محـرس مـن المحـارس ولا مدرسـة مـن المـدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها تهـون عليـه فىذلـك نفقات بيوت الأموال"(١٠).

أما الجامع الأزهر فقد استقبل منذ إنشائه أفواج الطلاب من داخل مصر وخارجها ومن كافة الأقطار الإسلامية وكان كثير من هؤلاء الطلاب يلازمون الإقامة فيه ولكل طائفة رواق يعرف بهم ، وتحمل إليهم الأطعمة والخبز والحلوى بانتظام .

وفى عصر المماليك زاد إقبال الطلبة من داخل مصر وخارجها على الدراسة فى الأزهر بعد أن زال عنه طابعه الشيعى ودعا هذا الأمر إلى اتخاذ أروقة الجامع مساكن يأوى إليها الطلبة المصريون والطلبة الغرباء(١١) ، ويذكر المقريزى أن عدتهم فى سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) بلغت سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزيالعة ، ومن ريف مصر والمغاربة(١٢) .

أما عن المساكن الداخلية فى دور الحديث ، فقد وردت إشارة إليها فى حديث ابن كثير عن دار الحديث الأشرفية بدمشق فقال : " وقد كانت دار الحديث الأشرفية دارًا لهذا الأمير - يعنى صارم الدين قايماز المتوفى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م) - وله بها حمام ، فاشترى ذلك الملك الأشرف فيما بعد وبناها دار حديث وأخرب الحمام ، وبناه مسكنًا للشيخ المدرس بها "(١٣) ، وهذا النص يؤكد وجود مثل هذه المساكن فى دور الحديث لمدرسيها ، وأنه لم يقتصر وجودها على المدارس .

ومثل هذه المساكن كانت موجودة أيضًا فى الخوانق والربط . وفى ذلك ما ورد عن خانقاه سرياقوس التى أنشأها السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٤م) لتكون مقرًا لإقامة طلبة العلم والمتصوفة(١٤) .

أما المدارس ، فكانت السكنى فيها من الأركان الأساسية للمدرسة الإسلامية ، ويشير إلى ذلك ما ذكره صاحب الحوادث الجامعة عن المدرسة المستنصرية ، وأن هذه المدرسة قسمت أرباعًا ، فسلم ربع القبلة الأيمن للشافعية ، والربع الثانى يسرة القبلة للحنفية ، والربع الثالث يمنة الداخل للحنابلة ، والربع الرابع يسرة الداخل للمالكية ، وأسكنت بيوتها وغرفها وأجريت لهم الجرايات

الوافرة ، وكان بكل بيت يسكنه فقيه البساط والمنارة والنحاس ، وكـان بالمدرسـة حمام تتوافر فيه حاجياته .

وهكذا غدت المساكن الداخلية فى المدارس شيئًا أساسيًا ، ومـن متطلباتهـا الضرورية ، حتى ذكر العماد الأصفهانى عنها ما نصه : " وسكن المدرسة النظامية ببغداد من جملة الشـريعة رجالهـا "(١٥) ، والواقـع أن المدرسـة المسـتنصرية ببغـداد بلغت فيها المساكن الداخلية غاية فى الفخامة والجودة ، وكـان المحلقـون فيهـا مـن الطلاب والمدرسين ينعمون بسخاء الخليفة وكرمه فى الإنفاق عليهـم ، يقـول ابـن العبرى عن ذلك : " إن المدرسة المستنصرية لم يعمر الدنيا مثلها "(١٦) .

أما المساكن الداخليـة فـى بـلاد الشـام فإنهـا تعـد مرفقًـا مهمـا مـن مرافـق مدارسها ودور التعليم المختلفة فيها ، وبخاصة فى العهدين الزنكى والأيوبى عندمـا نشطت حركة التعليم نشاطًا لم تشهد له بلاد الشام مثيلاً من قبل . وتعد المدرسـة النورية الكبرى بدمشق وما احتوته من مساكن نموذجًا صادقًا لذلك .

وقد حدثنا ابن جبيرحديثًا ممتعًا وهو يصف إحدى مدارس حلب ومـا ألحـق فيها من مساكن فقال : " ويتصل به - يعنى الجامع الكبير - مـن الجـانب الغربـى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنًا وإتقان صنعة ، فهما فى الحسن روضة تجـاور أخرى . وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعـة ومـن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى مفتح كله بيوتًا وغرفًا ولهـا طيقـان يتصـل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش مثمر عنبًا ، فحصل كـل طـاق مـن تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليًا أمامها ، فيمد الساكن فيها يده ويجنيـه متكئًا دون كلفة ولا مشقة "(١٧) .

أما المدارس المصرية فى العهدين الأيوبى والمملوكـى ، فقـد شـهدت تطـورًا كبيرًا فى هذا الشأن ، وكانت مثالاً للفخامـة والاتسـاع ، والعنايـة الفائقـة حيـث اشتهرت مجموعة منها بجودة مساكنها أكثر من غيرها ، فالمقريزى يصف التشـاحن والتنافس بين الطلبـة فـى سـكنى المدرسـة الصاحبيـة البهائيـة التـى أسسـها الوزيـر

الصاحب على بن حنا سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م)(١٨) ، بما أعد لإقامة الطلاب فيها ، بل ربما أقام الطالب منهم مشاركًا غيره فى البيت نفسه . يقول عنها المقريزى : " وكانت من أجل مدارس الدنيا ، وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها ويتشاحنون فى سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة "(١٩) .

وتفيد هذه العبارة الأخيرة أن الغرفة الواحدة كانت مخصصة فى الأصل لطالب واحد إمعانًا فى توفير الهدوء والراحة لطالب العلم ، ولكن فى أوقات الزحام يمكن أن يسكن فى البيت الواحد إثنان أو ثلاثة . ولعل فى هذا كناية لما وفرته هذه المساكن من راحة ورفاهية للطلاب لكى يتمكنوا من مواصلة دراستهم بطمأنينة وراحة بال .

أما المدرسة الظاهرية التى أنشأها السلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م) فقد ذكر المقريزى عنها أن " للناس فى سكناها رغبة عظيمة ويتنافسون فيها تنافسًا يرتفعون به إلى الحكام "(٢٠) .

ومن ذلك أيضًا ما يرويه المقريزى من أن الشيخ جلال الدين البنانى الحنفى كان يدرس فى مدرسة الجاى التى أنشئت فى القاهرة سنة ٧٦٨هـ (١٣٦٧م) ويضيف إلى ذلك أنها كانت سكنًا له "(٢١) . ويقول فى الخطط أيضًا أن مدرسة مغلطاى الجمالى التى بنيت سنة ٧٣٠هـ (١٣٣٠م) كانت من أجل مدارس القاهرة ، وكان يسكنها أكبر فقهاء الحنفية(٢٢) .

وهذه المساكن تختلف فى جودتها وإمكانياتها من مدرسة لأخرى ، إذ اشتهرت كثير من المدارس بجودة مساكنها ، وانعكس ذلك على إقبال طلبة العلم عليها ، ونشاط الحركة التعليمية فيها ، كما حدث فى المدرسة الحلاوية بحلب التى تميزت بجودة مساكنها فشهدت إقبالاً كبيرًا عليها .

ولم تكن المساكن الداخلية مقصورة على الطلبة فحسب وإنما ضمت غيرهم من العلماء والمدرسين إذ يذكر ياقوت الحموى أن الشاعر محمد بن إسحق الزوزنى

(ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) كان يسكن مدرسة السيورى بياعذرا (محلة بنيسابور) وكان يسكن بها أيضًا جماعة من الأئمة(٢٣) .

ولما وصل ابن ظفر الصقلى (ت ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م)(٢٤) ، إلى المشرق الإسلامى ودخل حلب أقام فى مدرسة ابن أبى عصرون ، وظل بها حتى وقعت فتنه بين السنة والشيعة بحلب فخرج منها إلى حماة(٢٥) .

كذلك أقام الإمام أثير الدين أبو حيان الغرناطى النحوى الكبير بعد قدومه إلى القاهرة بالمدرسة الصالحية بها(٢٦) .

ومما يشار إليه هنا أنه لم يكن من الضرورى أن يقيم المدرس بالمدرسة التى يتولى التدريس فيها ، فقد يكون سكنه فى مدرسة ، وهو يدرس بأخرى . من ذلك ما ذكره ياقوت الحموى عن أسعد بن مسعود العتبى وأنه له مجلس إملاء فى جامع المنيعى بنيسابور ويسكن فى مدرسة البيهقى(٢٧) .

الخدمات المتوافرة فى المساكن :

كان الساكنون فى المساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية ينعمون إلى جانب إقامتهم فى هذه المساكن بخدمات متعددة ومتنوعة ، وهى خدمات تختلف من مدرسة إلى أخرى تبعًا لظروف أوقافها ، وشروط واقفيها ، كانت أبرز تلك الخدمات تتمثل فيما يلى :

١ – الجرايات أو الرواتب :

كان يقدم للطلبة فى السكن الداخلى المعاليم أو الرواتب الشهرية .

٢ – الطعام واللباس :

كما أنه كان يقدم لهم الطعام الذى يعد فى مطابخ خاصة داخل المدارس يقوم به طهاة مختصون ، وكثيرًا ما تشير وقفيات المدارس إلى كثير من الأطعمة التى توفر للطلاب الساكنين فيها . فهذه حجة السلطان حسن بن قلاوون تشير إلى أنه كان يقدم لطلاب السكن الداخلى " خبز ، وأرز ، وعسل ، وحبوب ، وحب رمان ، وغير ذلك "(٢٨) .

كما كانت توفر الألبسة لساكنى المدارس طيلة مدة إقامتهم(٢٩) .

٣ – الرعاية الطبية :

لم يهمل مؤسسو المدارس الرعاية الطبيـة الشـاملة للمدرسـين والطلبـة ومـن معهـم مـن أصحـاب الوظـائف بالمدرسـة سـواء كـانوا مـن المقيمـين فيهـا أو فـى خارجها. فهذه المدرسة المستنصرية ببغداد كان من شـروط وقفهـا أن يكـون فيهـا طبيب يطبب من يعرض له مـرض مـن أربـاب هـذا الوقـف ، ويعطـى المريـض مـا يوصف له من أدوية وأشربة وغير ذلك(٣٠) .

كذلك جاء فى حجة السلطان حسن بن قـلاوون أن يرتـب النـاظر (نـاظر الوقف فى المدرسة طبيبين يتناوبان فـى الحضـور إلى المدرسـة يوميًـا " يـداوى مـن يحتاج إلى المداواة من أرباب الوظائف والطلبة المقيمين بالأماكن ومـن يحضـر إليهـا من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس له سكن ، ويتوجـه إليـه الطبيـب فـى مكـان إقامته ولا يكلف المريض الحضور إلى الطبيب "(٣١) .

٤ – الحراسة والنظافة والإنارة :

لم يكن الدخول والخروج من المساكن الداخلية يتم عشوائيًا ، بل كـان يتـم وفق نظام دقيق وضعه القائمون على هذه المساكن حيث كان هنـاك حـرس يـلازم باب المدرسة لصيانتها ، وحفظ ما فيه من أثاث ومتـاع ، ولمراقبـة الداخلـين إليهـا والخارجين منها ، وقد أعطى صلاحية لمنع مـن لا يقيمـون فيهـا أو غـير المرغـوب فيهم من الدخول إليها ، ويشير المقريزى إلى أنه على البواب أن " لا يُمكن غريبًـا يصعد إليها "(٣٢) ، وعلى البواب أن يكون يقظًا أمينًا ، ولا يترك البـاب إلا لعـذر على أن يستخلف من يقوم مقامه فى حال غيبته(٣٣) .

أما الفراشون فكانوا يتولون عملية تنظيف المدرسة ومساكنها الداخلية ، من كنس ورش وتنظيف الفرش ونفضها ، وكثيرًا ما كانت تلك الأعمال توزع بينهـم بالتناوب . كما كان هنـاك القومـة الذيـن يتولـون الإشـراف علـى إنـارة المدرسـة ومسـاكنها الداخليـة وتعمـير القنـاديل للطلبـة ، وعمـل الصيانـة لهـا مـن المسـح والتنظيف(٣٤) .

شروط المساكن وآدابها :

يذكر هنا أن السكنى فى هذه المساكن لم يكن يتم عشوائيًا دون تنظيم ، ومراقبة ، وإنما كان يتم فى الغالب وفق ضوابط وترتيبات دقيقة يضعها ويشرف عليها القائمون على هذه المساكن ، حيث وضع بعض الواقفين للمدارس شروطًا لساكنى بيوتها كأن يكون مثلاً أعزباً غير متزوج ، وألا يبيت خارجها إلا أيامًا معدودات يحدد الواقف عددها ، إلى غير ذلك من الشروط والضوابط .

وقد حرص الفقهاء المسلمون من خلال كتاباتهم عن هذه الآداب والشروط كابن جماعة مثلاً على تحديد العلاقة بين الطلبة والمدرسين الساكنين فى المدرسة ، والمحافظة على مبناها وصيانته ، والحفاظ على سمعة المدرسة ، ومن ينتمى إليها أو يسكن فيها ، وذلك من خلال مجموعة آداب وشروط فرضوها على من ينوى السكن فى مثل هذه المساكن .

وقد وضعت تلك الشروط والقواعد لتنظيم السكن فى تلك المساكن بشكل دقيق ، بحيث تراعى حالة السكن الصحية ، واختيار المكان الملائم ، كما تراعى المستوى الأخلاقى للطلبة عند اختيار أماكن سكناهم بالمدرسة مما يضمن حسن العلاقة بين جميع الساكنين(٣٥) .

من ذلك ما ورد فى وثيقة مدرسة السلطان برقوق بالقاهرة إذ نصت على " أن يكون من هو ساكن بهذه المدرسة من الطلبة الصوفية وأرباب الوظائف منهم، عزبًا غير متزوج ، وأن يبيت بها ، ويسامح بالمبيت خارجها خمس ليال من كل شهر "(٣٦) .

ولا زالت أنظمة المعاهد الداخلية فى عصرنا تسير على هذا النمط ، فتسمح للطالب بالمبيت خارج السكن لبضعة أيام فى الشهر ، وذلك لزيارة الأهل أو قضاء بعض الحاجات أو للنزهة أو للترويح عن النفس ، وتغيير جو المدرسة الرتيب ، إلى غير ذلك من الاعتبارات التى كانت واضحة لدى واقفى المدارس الإسلامية(٣٧) .

أما إذا أراد أحد الساكنين بالمدرسة الزواج ، فكان يسمح له بـترك مسـكنه بها ليحل محله أحد العزاب . كذلك كان لا يسمح لأحـد السـاكنين الجمـع بـين بيتين ، ويستثنى من ذلك المدرسون إذ كـان يسـمح لهـم وعـائلاتهم بالإقامـة فـى مساكن المدرسة .

واستحب الفقهاء من ساكنى المـدارس أن يبـادروا بـإخلاء مسـاكنهم حـين يبلغون غايتهم من تحصيل العلم ليتيحوا لغيرهـم مـن الطـلاب فرصـة الإقامـة بهـا . قال ابن جماعة فى ذلك : " واللبيب المحصل يجعل المدرسة منزلاً يقضى وطـره منـه ثم يرتحل عنه ... فإن المـدارس وأوقافهـا لم تجعـل لمجـرد المقـام والعشـرة ولا لمجـرد التعبد بالصلاة والصيام كالخوانك ، بل لتكون معينة على تحصيل العلم والتفرغ له، والتجرد عن الشواغل فى أوطان الأهل والأقارب "(٣٨) .

وقد يشترط الواقفون أن يسكن بيوت المدرسة فقط المرتبون بها دون غيرهم لذا ، فقد ذكر ابن جماعة أنه : " إذا حصر الواقف سكنى المدرسة على المرتبين بها دون غيرهم لم يسكن فيها أحد غيرهم "(٣٩) .

وكانت هناك تنظيمات وآداب تتعلق بسكنى المدارس . طالـب المشرفون من يسكنها الالتزام بها ، وقد حافظت تلك الآداب علـى حرمـة المـدارس ومسـاكنها ومكنت القائمين فيها من أداء وظـائفهم علـى أكمـل وجـه . ويذكـر ابـن جماعـة بعض هذه الآداب فيما يلى : -

- أنه إذا حصر الواقف سـكنى المـدارس علـى المرتبـين بهـا دون غـيرهم لم يسكن فيها غيرهم فإن فعل كان عاصيًا ظالمًا بذلك ، وإن لم يحصـر الواقـف ذلـك فلا بأس إذا كان الساكن أهلاً لها(٤٠) .

- وإذا سكن فى المدرسة غير مرتـب بهـا فليكـرم أهلهـا ، ويقدمهـم علـى نفسه فيما يحتاجونه إليه منها ويحضر درسها لأنه أعظـم الشـعائر المقصـودة ببنائهـا ووقفها لما فيه من القراءة والدعاء للواقف والاجتماع علـى مجلـس الذكـر وتذاكـر

العلم فإذا ترك الساكن فيها ذلك فقد ترك المقصود ببناء مسكنه الذى هو فيه . وذلك يخالف مقصود الواقف ظاهرًا(٤١) .

- ومن الآداب لزوم حضور الدرس ، فقد ذكر ابن جماعة أن الساكن فى المدرسة إن لم يحضر الدرس لزمه الغياب عنها وقت الدرس لأن عدم حضوره الدرس مع وجوده داخل المدرسة من غير عذر فيه إساءة أدب وترفع على الطلاب واستغناء عن فوائدهم واستهتار بجماعتهم ، وإن قدر له الحضور فى المدرسة فى حال انعقاد الدروس ، فإنه يلزمه عدم الخروج من بيته إلا لضرورة ، ولا يتردد إليه مع حضورهم ولا يدعو إليه أحدًا أو يخرج منه أحدًا ، ولا يتمشى فى المدرسة أو يرفع صوته بقراءة أو تكرار أو بحث رفعًا منكرًا أو يغلق بابه أو يفتحه بصوت ونحو ذلك لما فى ذلك كله من إساءة الأدب على الحاضرين والحمق عليهم(٤٢).

- ومن الآداب ألا يشتغل فيها بالمعاشرة والصحبة ويرضى من سكنها بالسكة والخطبة بل يقبل على شأنه وتحصيله وما بنيت المدرسة له(٤٣) .

واللبيب المحصل يجعل المدرسة منزلاً يقضى وطره منه ، ثم يرتحل عنه فإن صاحب من يعينه على تحصيل مقاصده ويساعده على تكميل فوائده وينشطه على زيادة الطلب ويخفض عنه ما يجد من الضجر والنصب ممن يوثق بدينه وأمانته ومكارم أخلاقه فى مصاحبته فلا بأس بذلك بل هو حسن إذا كان ناصحًا فى الله غير لاعب ولا لاه(٤٤) .

- وليكن له أنفة من عدم ظهور الفضيلة مع طول المقام فى المدارس ومصاحبة الفضلاء من أهلها وتكرر سماع الدروس فيها وتقدم غيره عليه بكثرة التحصيل ، وليطالب نفسه كل يوم باستفادة علم جديد ، ويحاسبها على ما حصله فيها ليأكل مقرره فيها حلالاً(٤٥) .

- ويلزم على الساكنين فى هذه المدارس مراعاة أصولها وسبب بنائها ، فإن المدارس وأوقافها لم تجعل لمجرد المقام والعشرة ، ولا لمجرد التعبد بالصلاة والصيام

كالخوانك بل لتكون معينة على تحصيل العلم والتفرغ له والتجرد عن الشواغل فى أوطان الأهل والأقارب . والعاقل يعلم أن أبرك الأيام عليه يوم يزداد فضيلة وعلمًا ويكسب عدوه من الجن والإنس كربًا وغمًا(٤٦) .

- ومن الآداب المشهورة أن يلزم أهل المدرسة التى يسكنها بإفشاء السلام وإظهار المودة والاحترام ، ويراعى لهم حق الجيرة والصحبة والأخوة فى الدين والحرفة لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه .

ويتغافل عن تقصيرهم ويغفر زللهم ، وستر عوراتهم ويشكر محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم .

فإن لم يستقر خاطره لسوء جيرتهم وخبث صفاتهم أو لغير ذلك فليرتحل عنها ساعيًا فى جمع قلبه واستقرار خاطره وإذا اجتمع قلبه فلا ينتقل من غير حاجة، فإن ذلك مكروه للمبتدئين جدًا(٤٧) .

- ومن آداب سكنى المدارس اختيار من يجاوره ، وأن يتخير إن أمكن أصلحهم حالاً ، وأكثرهم اشتغالاً وأجودهم طبعًا وأصونهم عرضًا ليكون معينًا له على ما هو بصدده(٤٨) .

وتوزيع المساكن حسب الأعمار والقدرة أمر اهتمت به المساكن الإسلامية إذ جعلت المساكن العالية لمن لا يضعف عن الصعود إليها ، وأما الضعيف والمتهم ومن يقصد الفتيا والاشتغال عليه فالمساكن السفلية أولى بهم(٤٩) .

والمراقى التى تكون قريبة من الباب أو من الدهليز أولى بالموثوق بهم أما المراقى الداخلة التى يحتاج فيها إلى المرور بأرض المدرسة أولى بالمجهولين والمتهمين(٥٠) .

والأولى ألا يسكن المدرسة وسيم وجه أو صبى ليس له فيها ولى فطن وألا يسكنها نساء فى أمكنة تمر الرجال على أبوابها أولها كوى تشرف على ساحة المدرسة . وينبغى للفقيه ألا يدخل إلى بيت من فيه ريبة أو شر أو قلة دين ولا

يدخل إليه من يكرهه أهلها أو من ينقل سيئات سكانها أو ينم عليهم أو يوقع بينهم أو يشغلهم عن تحصيلهم ولا يعاشر فيها غير أهلها(٥١) .

وإذا سكن فى البيوت العليا خفف المشى والاستلقاء عليها ووضع ما يثقل كيلاً يؤذى من تحته . وإذا اجتمع اثنان من سكان العلو أو غيرهم فى أعلى الدرجة بدأ أصغرهما بالنزول قبل الكبير ، والأدب للمتأخر أن يلبث ولا يسرع فى النزول إلى أن ينتهى المتقدم إلى آخر الدرجة من أسفل ثم ينزل ، فإن كان كبيرًا تأكد ذلك وإن اجتمعا فى أسفل الدرجة للطلوع تأخر أصغرهما ليصعد أكبرهما قبله(٥٢) .

وألا يتخذ باب المدرسة مجلسًا بل لا يجلس إذا أمكن إلا لحاجة أو فى ندرة لقبض أو ضيق صدر ولا فى دهليزها المهتوك إلى الطريق ، فقد نهى عن الجلوس على الطرقات ، وهذا منها أو فى معناها لا سيما إن كان ممن يستحيا منه أو ممن هو فى محل تهمة أو لعب ، ولأنها فى مظنة دخول فقيه بطعامه وحاجته فربما استحيا من الجالس أو يكلف سلامه عليهم ، وفى مظنة دخول نساء من يتعلق بالمدرسة ، ويشق عليه ذلك ويؤذيه ولأن فى ذلك بطالة وتبذلاً(٥٣) .

وألا يكثر التمشى فى ساحة المدرسة بطالاً من غير حاجة إلى راحة أو رياضة ، أو انتظار أحد ، ويقلل الدخول والخروج ما أمكنه . ويسلم على من بالباب إذا مر به(٥٤) .

وهذه التوصيات فى اختيار غرف السكن ونوعية الساكنين ، وأسلوب الدخول والخروج من وإلى المساكن تؤكد حرص الفقهاء والمربين المسلمين على راحة الساكنين وملاحظتهم الدقيقة للفروق الفردية بينهم من النواحى الجسمية والعقلية والاجتماعية والنفسية والسلوكية بشكل عام .

* * *

ولم تغفل آداب سكنى المدراس عن الإشارة إلى جملة من الآداب المتعلقة بالمحافظة على متعلقات المسكن وحاجياته ، وصيانة المبانى المدرسية وتجهيزاتها ، انطلاقًا من أنها مؤسسات خيرية عامة رصدت للصالح العام . من ذلك ما ذكره ابن جماعة بأنه يجب على الساكن ألا يدخل ميضأتها(٥٥) العامة عند الزحام من العامة إلا لضرورة لما فيه من التبذل ، ويتأنى عنده ، وطرق الباب أن كان مردودًا طرقًا خفيفًا ثلاثًا ثم يفتحه بتأن ، ولا يستجمر بالحائط فينجسه ولا يمسح يده المتنجسه بالحائط أيضًا(٥٦) .

ومنها ألا يتوضأ من الفسقية لأنها مخصصة للشراب أو الصهريج أو الزير ، وعلى سطوح المنازل(٥٧) .

وعليه المحافظة على الفرش والحصر والقناديل ، والأثاث والمبانى باعتبارها ملكًا عامًا للمسلمين لايجوز لأحد أن يتصرف فيها كما لو كانت من أملاكه الخاصة(٥٨).

ومن الآداب أيضًا ألا ينظر فى بيت أحد فى مروره من شقوق الباب ونحوه. ولا يلتفت إليه إذ كان مفتوحًا . وإن سلّم سلّم وهو مار به من غير التفات، ولا يكثر الإشارة إلى الطاقات لاسيما إن كان فيها نساء . وألا يرفع صوته جدًا فى تكرار أو نداء أحد أو بحث كيلاً يشوش على غيره بل يخفضه ما أمكنه مطلقًا لا سيما بحضور المصلين أو حضور أهل الدرس وأن يتحفظ من شدة وقع القبقاب(٥٩) . والعنف فى إغلاق الباب ، وإزعاج المشى فى الدخول والخروج والصعود والنزول وطرق باب المدرسة بشدة لا يحتاج إليها ونداء من بأعلى المدرسة من أسفلها إلا أن يكون بصوت معتدل عند الحاجة(٦٠) .

وإذا كانت المدرسة مكشوفة إلى الطريق السالك من باب أو شباك تحفظ منها عن التجرد عن الثياب ، وكشف الرأس الطويل من غير حاجة ، كما نهى الساكن عن سلوك أى سلوك يعاب من العادات القبيحة ، ومنها الأكل ماشيًا وكلام الهزل غالبًا والبسط بالنعل ، وفرط التمطى والتمايل على الجنب والقفا والضحك الفاحش بالقهقهة وألا يصعد إلى سطحها المشرف من غير حاجة أو ضرورة(٦١) .

وقد حافظت تلك الشروط والآداب على حرمة المدارس ومساكنها ، ومكنت القائمين عليها والعاملين بها من أداء وظائفهم على أكمل وجه وأتمه .

الخاتمة :

وبعد هذا العرض لفكرة المساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية ، وما وصلت إليه تلك المساكن من تطور ورقى فى إعدادها وتنظيمها تتضح أهميتها والأثر الذى تركته فى نشاط حركة التعليم على مر العصور الإسلامية إذ يتأكد هنا أن هذه المساكن كانت من العوامل الأساسية لنشاط حركة التعليم عند المسلمين كما كانت سببًا فى إقبال طلبة العلم على الدراسة نظرًا لما توفره تلك المساكن بإمكانياتها المتاحة من التفرغ لطلب العلم .

أما ما تتصف به من تنظيمات وآداب هدفت إلى الارتقاء بخدماتها ، وتوفير الهدوء والراحة للساكنين فيها من الطلبة والمدرسين على حد سواء فيؤكد سبق المدارس الإسلامية منذ زمن مبكر فيما تنادى به التنظيمات الحديثة من ضرورة تطبيق سلوكيات تربوية معينة فى مثل هذه المنشآت لتتضح العلاقة بين الطلاب أنفسهم من ناحية ، وبينهم وبين أساتذتهم ممن يقيمون معهم داخل هذه المساكن من ناحية أخرى .

الهوامش

(١) الرحلة ، ص٢٥٨ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤١٨/١ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ٢٧٣/٢ .

(٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ١ / ٤٥٨ - ٤٥٩ .

(٥) السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ / ١٤٢ .

(٦) تنسب هذه المدرسة للخليفة العباسى المستنصر با لله أبى جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر أحمد ، ولد سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) وبويع بالخلافة سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م) ودامت خلافته حتى وفاته فى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢م) وقد اشتهر المستنصر با لله بأعماله العمرانية الكثيرة التى لا يزال بعضها باقيًا حتى اليوم ومنها هذه المدرسة . (سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ٨ / ٧٣٩ ، ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة ، ص١٥٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣ / ١١٣ . ١٥٩) .

(٧) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص١٨٥ .

(٨) تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٣٨٣ .

(٩) الرحلة ، ص ٢٦ .

(١٠) نفسه ، ٢٧ .

(١١) سيدة إسماعيل كاشف " الجامع الأزهر ودوره فى نشر الثقافة العربية الإسلامية " فى : تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية - أعدها للنشر عبد العظيم رمضان - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٢م) - ص٤٥ - ٨٥ - سلسلة تاريخ المصريين / ٥١).

(١٢) الخطط ، ٢ / ٢٧٦ .

(١٣) البداية والنهاية ، ٢٣/١٣ .

(١٤) المقريزى ، الخطط ، ٢ /٢٨٥ .

(١٥) زبدة النصرة ، ص٦٢ .

(١٦) مختصر الدول ، ص٢٤٧ .

(١٧) الرحلة ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(١٨) هو : الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا وزير الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، ومدبر شؤونه المتوفى فى ذى الحجة سنة ٦٧٧هـ (١٢٧٩م) .

(١٩) الخطط ، ٢ / ٣٧١ .

(٢٠) الخطط ، ٢ /٣٧٩ .

(٢١) الخطط ، ٢ / ٣٩٩ .

(٢٢) الخطط ، ٢ / ٣٩٢ .

(٢٣) معجم الأدباء ، ١٨ / ٢٠ .

(٢٤) هو أبو جعفر الصقلى الأصل ، المكى ، النحوى اللغوى الأديب ، صقلى المولد مكى النشأة رحل إلى مصر وأفريقية ، ثم تنقل بين البلاد حتى حط رحاله فى حلب وأقام فيها يدرس بالمدرسة العصرونية الشافعية ، ثم انتقل إلى حماة فى آخر عمره ومات بها ، (القفطى ، إنباه الرواة ، ٣/٧٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٤/٣٦٥ - ٣٩٧) .

(٢٥) ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٩ / ٤٨ .

(٢٦) المقرى ، نفح الطيب ، ١/٥٨٩ .

(٢٧) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٦ / ٤٠٤ .

(٢٨) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ص ٣٠٣ .

(٢٩) محمد عادل عبد العزيز ، التربية الإسلامية فى المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية ، ص٥٣ .

(٣٠) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، ص ٥٩ .

(٣١) عبد الغنى محمود ، مرجع سابق ، ص٢٠٦ ، نقلاً عن حجة حسن بن قلاوون ، ٨٨١ أوقاف .

(٣٢) الخطط ، ٢ /٣٨٢ .

(٣٣) محمد منير سعد الدين ، المدرسة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ص١١٧ .

(٣٤) المرجع نفسه ، ص١١٧ .

(٣٥) عبد الغنى محمود ، مرجع سابق ، ص٣٠٥ .

(٣٦) المرجع نفسه ، ص٣٠٦ .

(٣٧) على سالم النباهين ، نظام التربية الإسلامية فى عصر دولة المماليك فى مصر ، ص٣١٧ .

(٣٨) ابن جماعة ، التذكرة ، ٢٢٠ .

(٣٩) التذكرة ، ٢١٠ والراتب عند المحدثين ما يقدم مكافأة لمن هو فى منصب أو خدمة وبه المرتبون هم الذين يجرى عليها أدرار من أوقاف المدرسة فيقيمون فيها .

(٤٠) تذكرة ، ص ٢١٥ ، والمرتبون هم الذين يجرى عليهم أدرار من أوقاف المدرسة ، فيقيمون فيها .

(٤١) التذكرة ، ٢١٥ - ٢١٦ .

(٤٢) تذكرة السامع ، ص٢١٦ .

(٤٣) نفسه ، ٢١٦ .

(٤٤) نفسه ، ٢٢٠ .

(٤٥) نفسه ، ٢٢٠ .

(٤٦) نفسه ، ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٤٧) التذكرة ، ص ٢٢١ .

(٤٨) نفسه ، ٢٢٣ .

(٤٩) نفسه ، ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٥٠) التذكرة ، ٢٢٤ .

(٥١) نفسه ، ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٥٢) نفسه ، ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٥٣) نفسه ، ٢٣١ .

(٥٤) نفسه ، ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٥٥) الميضأة : مكان الاغتسال والوضوء .

(٥٦) التذكرة ، ٢٣٢ .

(٥٧) ابن الحاج العبدرى ، مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة ، ص٢١٣ - ٢١٧ .

(٥٨) عبد الغنى محمود ، مرجع سابق ، ٣٠٥ .

(٥٩) القبقاب : الحذاء المصنوع من الخشب .

(٦٠) ابن جماعة ، نفسه ، ٢٣٣ .

(٦١) نفسه ، ٢٣٣ - ٢٣٤ .